في الأدب الدرامي

١٥ ـ الرواية المسرحية

في التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

تتمة

الغنائية (الأوبرا L'opéra)

الغنائية:

الغنائية هي درامة شعرية جدية أو هزلية تؤلف من الغناء والانشاد وتأبى الحوار الكلامي ، وتقبل الخوارق كالأشباح والأرواح والهواتف ، وتوقع على أنغام الموسيقى ، وتختلط أحياناً بالرقص ، وتعنى كل العناية بالزينة والرياش . وهي غاية ما وصل اليه الجمال الفني والذوق الانساني ، لأنها مجمع الفنون الجميلة ومظهر الآداب الجليلة ومتعة النفوس ولذة الحواس بما تفيضه على العيون والآذان والأذهان من جميل الصور وحلو النغم ورائع الشعر ، بله ما تقتضيه من كمال الفن الآلي (mécaniqu) لأحداث الخوارق وتغيير المناظر . فهي ولا ريب أفصح الألسنة إبانة عما يلفته القرائح من النبوغ وأدركته الفنون من النضوج في عصرها الذي مثلت فيه

على أن قوام الغنائية وفروعها هو الموسيقى والمناظر ، فهي تنزل الكلام والحادث والتعقيد في المحل الثاني منها . لذلك لا تجد كلامنا عنها إلا إجمالاً يكاد يقفك عند التعريف والتقسيم . وقبل أن نأخذ في تقسيم الغنائية يحسن بي أن أنقل اليك ما قاله في هذا الصدد الفيلسوف ابن رشد في تلخيصه كتاب الشعر لارسطاطاليس . وما قاله لا يدخل في موضوعنا إلا من الباب التاريخي . وهذا الملخص قد طبعه الأستاذ المستشرق (لاريجو) بمدينة فلورنسا سنة ١٨٧٣ قال : (المحاكاة في الأقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة أشياء : من قبل النغم المتفق ، ومن قبل الوزن ، ومن قبل التشبيه نفسه . وهذه قد يوجد كل واحد منها منفرداً عن صاحبه مثل وجود النغم في المزامير ، والوزن في الرقص ، والمحاكاة في اللفظ ، أعني الأقاويل المخيلة الغير موزونة . وقد تجتمع هذه الثلاثة بأسرها ـ مثل ما يوجد عندنا في النوع الذي يسمى الموشحات والأزجال ، وهي الأشعار التي استنبطها في هذا اللسان أهل هذه الجزيرة أي الأندلس)

ولا مرية في أن أعاريض الموشحات والأزجال أنسب لنظم الغنائيات من سائر بحور الشعر لحلاوة نغمتها وسهولة توقيعها وتنوع قوافيها

فالغنائية تنقسم باعتبار تلحينها الى أجزاء تفردها لك دون أن نعرض لها ، لأنها ليست من شأننا ولا مما يدخل في علمنا . وهي الافتتاح ، والمقدمة ، والانشاد ، والألحان ، والثاني ، والثالث ، والمرابع ، والمخامس ، والخورس ، والختام في نهاية كل فصل . فالافتتاح ما يسبق رفع الستار ، والمقدمة ما يهيء للعمل ، والانشاد نوع من الغناء يحل محل الحوار الكلامي دون أن يتقيد بوزن ، والثاني والثالث والمرابع والمخامس قطع يزدوج فيها الصوت أو يثلث أو يربع أو يخمس ، والخورس ما فوق ذلك . على أن اجتماع هذه الأجزاء ليس ضرورياً ولا جوهرياً . فالملحن يستطيع أن يغفل منها مالا يتفق مع الرواية

ثم تنقسم الغنائية باعتبار تأليفها الى غنائية جدية ، وهي ما كان موضوعها سامياً وعملها رائعاً وأداؤها غنائياً كله . فلا تجيز الحوار النثري وإنما تستبدل به الانشاد ، وغنائية هزلية وهي ما تجيز الحوار النثري في خلال القطع الغنائية

الغنائية الجدية (L'opéra seriese)

ليس من اليسير أن نجد لهذه الغنائية تعريفاً جامعاً لتنوعها وتفرعها ، واختلاف الرأي فيها بين الفرنسيين والايطاليين ؛ فان لكلا الشعبين نظرية فيها سار عليها ودعا إليها . ولعلنا إذا ذكرنا النظريتين تستطيع أن نقف منهما على موضوع الغنائية ومداها

فالنظرية الفرنسية زعيمها (كينو) وهي مبنية على تقليد الملحمة في استعمال الخوارق والأعاجيب وتنوع المناظر وتعدد الصور ، ونقل كل ذلك إلى عين الناظر كما تنقله الملحمة إلى ذهن القارئ . فقد يكون التأليف كله مختلقاً عربياً ، ولكن في هذا الاختلاق اتفاقاً واتساقاً تنتج منهما الحقيقة ؛ كما أن الموسيقى تظهر جمال الخوارق ، والخوارق تبين إمكان الموسيقى . فأنت في جو جديد يجمع بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، ويضيف إلى جمال الخيال سحر

الطبيعة ، وذلك كله يسير في انسجام والتئام ودقة . أما العمل الروائي فواضح يسهل عقده وحله ، والحوادث يتوالد بعضها من بعض ، والأهواء رقيقة تشتد حيناً ثم ترق ، والأخلاق ساذجة ، والمناظر متنوعة ، والجاذبية قوية مؤثرة ، ولكنها تتراخى أحياناً فتخف عن الأعصاب وترفه عن النفوس

تلك هي غنائية (كينو) ونظريته : يجمع كل ما يستطيع من الوسائل ليخلب السمع ويبهر البصر ؛ وهو لذلك يستمد موضوعاته من الأساطير والسحر ، فيملأ المسرح بالأعاجيب والصور ، ويهيئ لنفسه الانتقال من الأرض إلى السماء ومن الجنة إلى النار ميمماً على الطبيعة مستولياً على الوهم فاتحاً للمأساة طريق الملحمة ، ليجمع بين فضائل النوعين ، ويوفق بين مرمى القصيدتين

ومزية هذه الطريقة الخوافيـــة أن تكفي الشاعر مؤونة التفصيلات الدقيقة التي تطلبها الحقيقة ، فان الموضوعات التاريخية تقتضي جلاء الغامض وتعليل الحوادث وتقريب البعيد وإمكان المستحيل

أما النظرية الايطالية فزعيمها (ميتا ستاز) وهي مبنية على محاكاة الطبيعة وتوخي التأثير والبلوغ بالمحزنات الفواجع إلى حد لم تبلغه المأساة . فهو يكسو الأفق بالسواد ، ويصبغ المسرح بالدم ، ويسرع بحركة العمل وهو مغرق في الاشارة والاثارة بروعة الأداء وحدة الهوى . وفضل هذه النظرية على الأولى ظاهر في قوة الأثر ودقة المواقف وجمال الحقيقة وسهولة الامكانية . لذلك عني الشعراء والموسيقيون بالتوفيق بين النظريتين والجمع بين الطريقتين ليدركوا مزايا هذه وتلك . فهم يمزجون الصور العجيبة بالرهيبة ، والمواقف الطريفة بالعنيفة ، والمناظر التي تسحر العين بالتي تخلب القلب

على أن الغنائية ليست مقصورة على الخوارق والمحزنات ، وإنما تتناول الاناقة الحضرية والحياة الريفية والخلق الفكه والهزل المضحك ، على شرط أن يتسق كل ذلك في طبيعة حية وحركة قوية وتنوع جاذب

الغنائية الهزلية (L'opéra comique)

أما الغنائية الهزلية فاسم يطلق اليوم على درامة جدية الموضوع فكهة الأسلوب ، تخلط الغناء الشعري بالحوار النثري ، وتعنى بتعقيد العمل الروائي . ومنشأ هذا النوع كان في مستهل القرن السابع عشر ، ظهر أولاً في شكل ملهاة غنائية كانت تمثل في سوقين شهيرتين : (سان جرمان) و (سان لوران) . ثم أخذ مع الزمن يقترب من الغنائية الجدية بتغليب جانب الموسيقى والغناء حتى لم يبق بينهما اليوم إلا فروق سطحية شكلية أهمها الأسلوب الفكاهي . فاطلاق هذا الاسم على الغنائية التي لا نصيب للهزل فيها اطلاق غير صحيح ، لأن الغنائية إنما وضعت في الأصل للدلالة على كل عمل موسيقي ، ولا سيما العظيم الجدي منه . فاضافتهم صفة الهزل (Comique) اليها دليل على أنهم يريدون بها عملاً أقل في العظمة ، وأقرب من الهزل ، وأقبل للحوار النثري . ويؤيد هذا الرأي أن الغنائية الهزلية أو الاوبرا كوميك سليلة المهزلة (الفودفيل)[1] ولا يفرق بينهما إلا أن ألحان المهزلة كلها معروفة مألوفة من قبل ثم تقتبس لأوزان جديدة تؤلف للرواية . أما ألحان الغنائية الهزلية فهي مصنوعة لأوزانها خاصة ، ولذلك كان شعرها محكم الرصف بديع الوصف ، يقوم عليه الشطر الأكبر في نجاح الرواية

وغبرت الغنائية الهزلية حقبة من الدهر وهي خاضعة لسلطان المهزلة فلا تستطيع أن تتجاوز مداها ، ولا أن ترتفع عن مستواها ، وانما كانت تستعير أساليبها الحية ، وأناشيدها الطلية ، حتى جرؤ اللحنون على أن يطلبوا الى المؤلفين أن يوسعوا الدائرة القديمة ، وأقدموا هم أيضاً على ابتكار ألحان جديدة ، واقتباس بعض المثاني والمثالث والأشكال من الغنائية الجدية ما دامت تتصل بها وتتعلق بسببها . فلما صارت الغنائية الهزلية فناً أدبياً

(١) تطلق هذه الكلمة اليوم على ملهاة صغيرة تافهة الموضوع محكمة التعقيد ، هزلية الأسلوب ، لا تتحرج من ارسال النكتة المقذعة . وقد تشتمل على بعض الأصوات الغنائية استبقاء لأثر الماضي وخصائص الأصل . فقد قالوا في بدء تكوينها إن (أوليفييه باسلين) من أهل (فير) وهو واد في (نورماندیا) نظم سنة ١٤٥٠ أغاني هجائية ذاعت في وادي فير فسميت بذلك فودفير (Vau de vire) أي (وادي فير) ثم نزحت عن منبتها ومكان نشأتها فتصحف الاسم الى (فودفيل) . وفي مستهل القرن الثامن عشر أدخلوا هذا النوع من الأغاني المقذعة في ملاه كانت تمثل في الأسواق وتسمى (ملاهي مم الفودفيل) ثم اقتصروا بعد ذلك في اسمها على الفودفيل ، وكانت حينئذ كلها شعراً يغنى على أنغام معروفة من قبل لم تصنع لها خاصة حتى دخلها الحوار النثري فصارت أشبه بالغنائية الهزلية لا يميزها منها إلا الفرق الذي مر بك عند الكلام عن هذه الغنائية . ثم فعل بها الزمن ما فعل بسائر الأنواع فشذب أطرافها ، وهذب إسفافها ، حتى ردها الى التعريف الذي بدأنا به هذه الكلمة